محاورة أفلاطون الخيالية

حول التربية الانجليزية

الأستاذ عبد العزيز عبد المجيد

يعتبر سقراط أول من وضع الأسلوب الحوارى الاستنباطى أسلوب التهكم الذى يقف نفسه فيه موقف الجاهل ، ثم يسوق أسئلته البريئة اللاذعة التى تصير بالمسئول إلى حال التشكك والحيرة؛ غير أن سقراط لا يلبث أن يستدرج محاوره إلى النهاية الخفية التى يضمرها ، والتى يريد كشفها بأسئلته ونقاشه ، فيتجلى الأمر ويصل إلى النتيجة ، ولا يجد محاورُه مفرًّا من التسليم له بوجهة نظره من غير أن يقصد إلى ذلك

ولقد نهج أفلاطون فيما كتبه — ولا سيما فى جمهوريته ومحاوراته — منهج أستاذه سقراط : ففى « الجمهورية » مثلاً يعالج مبدأ العدالة فى مدينته الفاضلة بأسلوب استنباطى حوارى على لسان سقراط نفسه . غير أن الحديث يتشعب به فينتقل من موضوع إلى موضوع ، ومن بحث إلى بحث ، حتى يخيل لقارئه أنه يكاد يفقد الفكرة التى بدأ بها موضوعه الأول ، ولكن لا يلبث حتى يعود إليها

ومما عالجه أفلاطون فى « الجمهورية » موضوع التربية . وآراؤه فيها — وإن كانت قد أصبحت قديمة كبعض فلسفته — تستحق إيرادها هنا كتمهيد لتلك المحاورة الخيالية التى سأنقلها للقراء من الإنجليزية ، والتى دارت بين أحد المربين الإنجليز وبينه حين بعث منذ أربع سنوات ، بعد أن مر على وفاته ثلاثة وعشرون قرناً

يرى أفلاطون فى « الجمهورية » أن هناك ثلاثة أنواع من الناس : نوع وهبه الله الحكمة والذكاء ، وهؤلاء يربّون إلى أن يصلوا إلى مرتبة الحكام الفلاسفة ، وهم الساسة المفكرون ، ذوو الأمر والنهى والرأى المطاع ؛ ونوع دونهم فى الذكاء والقدرة الفلسفية ، وهؤلاء يربّون ليكونوا مساعديهم فى الإدارة والتنفيذ وليكونوا رجال الجيش الذين يحفظون النظام داخل الأمة ويذودون عن حياضها فى الخارج ؛ ونوع فى المرتبة الدنيا غير الموهوبة التى لا تصلح إلا للزراعة والتجارة والصناعة ، وهؤلاء يكوّنون جمهرة الشعب وعامته

والمحاورة الخيالية التى سأوردها هنا من وضع الأستاذ كرُصمان Crossman بجامعة اكسفورد . وقد أذاعها من محطة لندن ضمن سلسلة أحاديثه التى تشمل أيضاً : أفلاطون والديمقراطية الانجليزية ، أفلاطون والأسرة الانجليزية ، أفلاطون والاشتراكية ، أفلاطون والنظام الفاشستى الخ[1] . وها هى ذى المحاورة :

أفلاطون للمربى : يقال إنكم أنتم معشر الإنجليز مهتمون بالتربية ومعضلاتها ، ومصممون على بنيان نظامها على أسس قوية لأنكم تدركون أن تربية النشء تربية صحيحة ، إنما هى عامل فعال فى إصلاح شؤون الدولة ، وأن سلامة الأمة لا تكون إلا بالتربية الحقة

المربى : نعم ، الأمر كذلك . ولقد خطونا خطوات مباركة فى الخمسين سنة الماضية . ولعلك لا تدرى أننا حتى سنة ١٨٧٠ لم يكن لنا نظام تعليم حكومى موضوع ، ولم يكن عندنا تشريع للتعليم الإجبارى ، ولم تكن عندنا كليات ثانوية للبنات بجانب العدد القليل من مدارس البنين الثانوية الصالحة ، ولم يكن لغير أتباع الكنيسة الإنجليزية حق فى التعليم العالى مهما كانت ثروتهم . أما الفقير فلم يكن له نصيب من التعليم الجامعى ولو كان من النابغين . ولكن كل هذا قد تغير الآن . فالتعليم الإجبارى إلى الرابعة عشرة ، والتعليم الثانوى إلى الثامنة عشرة . وهو نصيب نسبة كبيرة من الناشئة التى هى أهل له . وعندنا عدد لا بأس به من الجامعات التى تعينها الحكومة ماليًّا ، والتى يتلقى فيها الشباب التعليم العالى إلى الثانية أو الثالثة والعشرين

أفلاطون : حقاً لقد كنتم نشطين فى ميدان التربية خلال هذه الحقبة الماضية ، وإنى لأهنئكم على أنكم أبيتم أن تدعوا التربية كما كانت فى يد الأسرة فقط ، أو غيرها من الهيئات التى لا تقدر هذه التبعة ، تبعة تنشئة الجيل القادم . ولكنى أود أن أعرف جليًّا الأسباب التى من أجلها وجهتم كل طاقتكم لجعل التعليم العام حقاً لكل فرد من أفراد الشعب

المربى : مما لا شك فيه أن من بين الأسباب التى دعتنا لهذا إيماننا بمبدأ العدالة . فنحن شعب ديمقراطى ، ونعتقد أن التربية

(١) نقلا عن كتاب Plato to-Day لمؤلفه R. H. Crossman

يجب ألا تكون وقفاً على طبقة خاصة من الشعب ، بل يجب أن تكون حقاً مشاعاً لكل فرد . وما فائدة أن نخول للفرد حق الانتخاب واختيار من يمثله فى المجالس النيابية إذا كان هذا الناخب جاهلاً لا يحسن اختيار ممثله . وتربية الشعب هى الوسيلة التى بها يكون للانتخاب أو التمثيل النيابى معناه ومغزاه ، فلا يكون له ذلك المظهر الصورى التقليدى . ومن السهل أن يكون للأمة حكومة نيابية ، وهيئة برلمانية ، ومؤسسات ديمقراطية ، هى نتيجة الانتخابات العامة . ولكن كل هذه مظاهر خادعة ما لم يكن الشعب متعلماً . والمؤسسات الديمقراطية لا تجعل الشعب ديمقراطياً ، ما لم يكن أفراده قد عرفوا معنى الديمقراطية واستطاعوا أن يجعلوا بها ، وأن يستفيدوا منها . ومعرفة معنى الديمقراطية واستغلالها الحكيم ليس شيئاً يسقط من السماء ، بل لا بد لخلقها فى نفوس الشعب من المال والمجهود . ونحن جادون فى هذا السبيل بالتربية التى نقدمها لأبناء الشعب فى مدارسنا . وليست التربية عندنا أن نصب عقول الناشئة فى قوالب متنظمة ، فتخرج قطعاً منتظمة تركب فى عجلات المحرك الحكومى ، فتؤدى وظيفتها دائرة مع هذه العجلات دوراناً آلياً ، حتى إذا عراها الصدأ أو تحطمت ألقينا بها جانباً ، واستبدلنا بها غيرها ، والحقيقة هى أننا لا نريد أن نجعل أبناء الجيل القادم صناعاً مهرة فحسب ، ولكنا نريدهم أن يكونوا مواطنين صالحين فى شعب ديمقراطى ، قادرين أن يقوموا بدورهم بنجاح فيما هم أهل له ، سواء أكان ذلك فى ميدان الكرة ، أم فى نقابة التجار أم فى المجلس المحلى أم فى دار النيابة . نريد أن ننشئهم بحيث يتعرفون كيف يحكمون أنفسهم ويساعدون من يحكمهم . فأنت إذاً ترى أن غاية التربية فى مدارسنا ليست إقدار الناشئة على كسب الخبز ونيل الوظائف ، ولكن الغاية من تعليمهم التاريخ والجغرافيا والاقتصاد هى أن يصبحوا فى أمتهم أعضاء يقدرون حقوقهم المدنية ، ويعرفون واجب الأمة عليهم

أفلاطون : صحيح كل هذا ، وهو يطابق تماماً ما قرأته لأحد ساستكم إذ يقول : إن التعليم العام للشعب ما هو إلا تجربة فى الحكم الذاتى . ولقد كان لهذه العبارة أثرها ومعناها فى نفسى لأنى أنا كنت قد حاولت فى مدينتى الفاضلة أن أجعل جميع أفرادها يشتركون فى حكومتها الذاتية . غير أن تجربتى لم تنجح فحدثنى إذاً عن نتائج تجربتكم التربوية هذه ، وهل توقظ فى الشعب شعوره بضرورة اشتراكه فى أمور السياسة الخارجية والداخلية ؟

المربى : نعم ، أعتقد ذلك ، فالشعب قبل الحرب الماضية مثلاً ما كان ليعنى بالشئون الخارجية ، أما الآن فالشعب جميعه يعنى بالسياسة الخارجية ، ووزير الخارجية فى البرلمان أكثر النواب حديثاً ، وأكثرهم إجابة عن الأسئلة المتنوعة التى توجه إليه من كل حزب ومن كل صوب ، ولا تسمع الآن فى أحاديث الأسرة الإنجليزية إلا أخبار الحرب والسلم

أفلاطون : ولكن هل تظن أن لاهتمام الشعب بالسياسة الخارجية وتدخله فيها كما ذكرت أثراً فى اعتدال هذه السياسة وتحسنها ؟

المربى : من غير ما شك . وآية ذلك أن الحكومة لا تستطيع الآن — كما كانت تستطيع من قبل — أن تقرر فى الخفاء أى شأن من شئون السياسة الخارجية

أفلاطون : إن سؤالى مرة أخرى هو : هل كان لاهتمام الشعب بالسياسة الخارجية أثر فى اعتدال هذه السياسة وتحسنها ؟

المربى : أجل ، لقد جعل اهتمام الشعب بالسياسة الخارجية الحكومة تدرك تبعة تصرفاتها ، وأنها مسئولة عنها أمام هذا الشعب الذى انتخبها ، فهى إذاً لا تستطيع أن تعمل ما تشاء ، ولكن ما يشاؤه الشعب

أفلاطون : ولكن هب الحكومة أرادت أن تفعل شيئاً تراه هى صالحاً ، ولا يراه الشعب كذلك ، فما هو الموقف ؟

المربى : نحن نعتقد أنه من الحكمة أن يفعل الشعب الفعلة الخاطئة بإرادته وحريته متى قرر ذلك بدلاً من أن يكره على عمل الصواب ...

أفلاطون : كأنى بك تعتقد أن الحرية خير من الفضيلة ؟

المربى : لا ، لا أعتقد هذا . ولكن الرأى عندى أن الفضيلة مستحيلة بدون الحرية . إنك لا تستطيع أن تكره الطفل على أن يكون خيِّراً ، بله الكبار من الرجال والنساء

أفلاطون : قد تكون على حق ! وإذاً فلماذا تريدون الحكومة ما دام الشعب يريد أن يعانى التجارب القاسية بأفعاله الخاطئة وتصرفاته الحمقاء ، وهو مطمئن لأنه قام بها بمحض حريته وبمجرد رغبته . ألا ترى أن الأصلح إلغاء النظام الحكومى نهائياً ! ؟

المربى : إن أسئلتك كالحلقة المفرغة لا يدرى لها طرف . وإنك لتلعب بسبارتى وتهكم حتى ليحسبها السامع جوفاء ...

لا يختلف اثنان فى أنه يجب أن يحال بين الأفراد وبين أى تصرف يتنافى مع حرية غيرهم . وهذه هى الحكمة فى قيام الحكومات ، ولكن يجب أن تترك الحرية لآفراد الشعب بقدر المستطاع ليقرروا بأنفسهم مصير شئونهم . إن الهدف الذى نرمى إليه — نحن المربين — فى هذا العصر هو أن نعد مواطنين يحسنون استخدام حقهم الانتخابى ، ويعرفون كيف ولِمَ ينتخبون ، فلا ينتظر منهم أن يكونوا خبراء فى شئون السياسة والاقتصاد ، ولكن يكفى أن يكونوا ذوى بصر وفكر بهما

أفلاطون : ألست تقر أنكم لم تكوّنوا بعدُ هذا النوع من الرجال ؟ فلِمَ إذاً تتعجلون — قبل أن تتم مشروعاتكم التعليمية وتنضج — فتكلون إلى أنصاف المتعلمين من الشعب الفصل فى شئونكم السياسية ؟ إن هذا لقلب للموضوع والوضع المنطقى الواجب أن يكون عندكم أولاً نظام عام للتربية يكوّن هؤلاء المواطنين الذين وصفتهم فى نقاشك ، وحينئذ تكلون إليهم مطمئنين الإشراف على سياسة الدولة داخلية وخارجية ، غير أنى أعتقد أنكم متى كوّنتم هذا النوع من المواطنين كامل التربية لم تعد ثمت حاجة إلى أية حكومة

المربى : لقد عدت بنا من حيث بدأنا . إن العالم لم يصل بعد إلى المثل الأعلى ، ولن يصل إليه ، فلا مفر من مواجهة الواقع كما هو ، ونحن فى بلادنا نعتقد أننا إذا وكلنا إلى المواطنين العاديين الإشراف على أمورهم ومستقبلهم فإنما نعطيهم الحرية التى بدونها نرى الحديث عن الفضيلة والخلق لغواً

أفلاطون : لقد قلت الآن إن الغاية من قيام الحكومة هو منع الأفراد أن يتعدوا فى تصرفاتهم إلى حقوق الآخرين ، وإلزامهم أن يتصرفوا لأمورهم ويدَعوا غيرهم وشأنهم ، فإذا كان الأمر كذلك فمن واجب الحكومة ، فى سياستها الخارجية ، أن تحول أيضاً بين أفراد شعبها وبين تعديهم إلى حقوق غيرهم من أفراد الشعوب الأخرى . وأنت الآن تريد مواطنى بلادك أن يوجهوا الحكومة فيما تبحثه من الشئون العالمية ، وأن يتدخلوا فيما تقرره منها . ومعنى هذا أن سياستكم الخارجية ستكون طبعاً خاضعة لنفوذ ذوى المصالح الشخصية من المواطنين الذين همهم الوصول إلى منافعهم المادية على حساب الشعوب الأخرى

المربى : كلا ، إننا نتوقع عكس هذا ، إن عامة الشعب لا ترغب فى الحرب ، وليس له مطامع مادية أو استعمارية ، إنْ هذه إلا مطامع تجار السلاح والذخيرة والرأسماليين . أما عامة الشعب فتريد السلم والعدالة العالمية

أفلاطون : هذا جميل حقاً ، ولكن هل يعرف أفراد الشعب كيف يحققون هذه المبادئ العالية السامية ؟ دعنى أنبئك وما ينبئك مثل خبير ؛ إن فن السياسة فن دقيق صعب المراس ، وإن علوم الحرب ليست من العلوم التى تدرك فى يوم ؛ فهل ترى أن أفراد الشعب خبيرون بفنون السياسة عليمون بتاريخ العلاقات الدولية ؟ أو هم فقط غيورون متحمسون تدفعهم العواطف النبيلة ، فإذا ما صدمتهم الحقائق العمياء ذهبوا كفقاعات الصابون فى الهواء

المربى : نحن الآن جادون فى تعليمهم فن السياسة والعلاقات الدولية . ولكن الحق هو أن هذا العالم يحتاج إلى قليل من المكر السياسى ، وكثير من الخلق المستقيم

أفلاطون : نحن على وفاق . فإن كل ما يحتاج إليه المواطن هو العواطف الخلقية القوية الفويعة . ولكن هذه العواطف وحدها لا تكفى لتكوين من يصلحون للحكم . وأنتم فى تجربتكم التى تقومون بها الآن بتربية الشعب تحاولون أن تُعدّوا جيلاً يستطيع أن يحكم نفسه بنفسه . وعندى أن هذا الجيل يحتاج إلى شىء آخر بجوار العواطف الخلقية التى أشرت إليها . إن مهنة السياسة تحتاج إلى مهارة ولباقة عقلية . وإذاً فلا بد أن نفرق بين التربية التى يحتاج إليها المواطن العادى والتربية التى يحتاجها الحاكم السياسى . فهذا الأخير يجب أن يعرف شيئين : قواعد السياسة التى يريد أن يتبعها ، والعالم الذى يريد أن يطبق فيه هذه القواعد . فهو باحترافه السياسة يشبه كل صاحب مهنة فقد نجد الرجل المغرم بالصور الجميلة ، الذى يدرك الجمال أنى يكون ويحبه بكل قواه ، ولكن هذا الإغرام أو الحب لا يخلق منه رساماً أو مصوراً . فالمصور لابد له من معرفة قواعد التصوير ، وخواص الألوان ومزجها ونتيجة أخلاطها ، وأنواع الأوراق والمواد التى يستعملها فى تصويره ، وأصناف الفراجيف التى يستخدمها وهلم جرا . هذا إلى الهبة الطبيعية التى تكون فيه . والأمر كذلك فى الحكم ؛ فليس يكفى أن يكون الحاكم ذا ميول خلقية نبيلة كحبه للعدل والسلم ، لا ، بل لا بد من أن يعرف أصول السياسة ، وحوادث العالم اليومية ، العالم الذى سيطبق فيه أصول سياسته . فأمر السياسة العالمية الخارجية إذاً ليس